من مقالات حسين سرحان

كتاب وآراء

بقلم

د. محمد بن سعد بن حسين

هذا هو عنوان الكتاب الذي أصدره النادي الأدبي بالرياض من سلسلة كتاب الشهر فهو العدد الثالث عشر من هذه السلسلة وصدر في محرم ١٤٠٠هـ ـ نوفمبر/ديسمبر ١٩٧٩م وطبع في مطابع الفرزدق بالرياض ويقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط . وهو مجموعة مقالات للأستاذ حسين سرحان نشرها في الصحف المحلية فقام الأستاذ يحيى ساعاتي بجمعها من مظانها حتى كون منها هذا السفر .

ويحيى ساعاتي من شبابنا النشط الذي اقبل على العلم ووقف نفسه في خدمته حتى أن تخصصه كان في المكتبات ، وقد ولد في عام ١٣٦٦ ونال الليسانس من كلية الآداب بجامعة الرياض سنة ١٣٨٩هـ. ثم حصل على الماجستير في المكتبات سنة ١٣٩٦ هـ .. وله مجهودات طيبة في مجال المكتبات وتصنيف الكتب وله في ذلك كتابات .

والأستاذ حسين سرحان هو أحد رجال الطليعة في بلادنا ورائد من رواد الفكر في الكتابة والشعر وقد ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٢ هـ وتلقى علومه بمدرسة الفلاح وتقلب في أعمال حكومية كثيرة وقد صدر له ديوانان أولهما (أجنحة بلا ريش) وثانيهما (الطائر الغريب) أصدره النادي الأدبي بالطائف . وهو ممن ترجم له : وحي الصحراء ، وشعراء الحجاز ، والموسوعة الأدبية ، وشعراء جزيرة العرب في العصر الحديث وغيرها ، وهو من الشعراء المجيدين عرف بأصالة فنه لغة وأسلوبا .

أما مقالاته التي نحن بصدد عرضها فانها خمس وخمسون مقالة .

وأولاها نقلت من « أم القرى » الجمعة ٢١ ربيع أول ١٣٤٩ هـ . ١٩٣٠م ، وأخراها عن مجلة العرب جمادى الأخرة سنة ١٣٨٨هـ ولكون هذا الكتاب مجموعة مقالات فقد تطول وقفتنا معه فيها .

فأما المقال الأول فكان عن اثنين من المعمرين الذين أدركهم الشاعر في مكة وليس في حديثه عنهما ما يختلف عن صيغ الأخبار المجردة وكان في امكان كاتبنا أن يطلق لقلمه العنان في التحليل النفسي لعادات وتقاليد هذين الرجلين وبخاصة أنه أدركهما وتحدث اليهما . أما المقال الثاني فعن الأسماء المستعارة والذي يدعو له الاستاذ فيها أن يطرح الأدباء تلك الأسماء المستعارة التي تسترهم عن قرائهم وأن يصرحوا بأسمائهم لأن الأمة الناشئة في ميدان الفكر ـ كما يقول حسين سرحان في هذا المقال ـ « يحتاج جمهورها

الى التعرف على أدباء أمته ، وأذكر أني قرأت قصيدة نظمها صاحبها في مطلع النصف الثامن من هذا القرن في وصف « العرضة النجدية » وهي قصيدة رائعة غير أن صاحبها لم يصرح باسمه وانما رمز لنفسه « بالفتى النجدي » وهو أستاذنا حسين سرحان ولقد استخدم الرمز في أكثر من موضع فلعله كان يرى ترك الرمز في مطلع حياته ثم أحس بضرورة ذلك أو الاحتياج اليه فاستعمله .

ولا نريد أن نغادر المقالات الأولى لحسين سرحان دون أن نسمعك طرفا من احداها لتتبين أسلوبه في أول عهده بالكتابة كما توضح لك طرق تفكيره واتجاه آراءه ! ففي ثالث مقال في هذه المجموعة نقل عن صوت الحجاز « الثلاثاء ٤ صفر ١٣٥٤ هـ » تحدث الكاتب عن جريدة صوت الحجاز في عهدها الجديد وانك لتحس غيرته على الأدب وحرصه على سمعة الأدباء واقباله على ما تنتجه أقلام الكاتبين وحرصه على أن تمثل الصحف كتابها ، تمثيلا صادقا ، انك لتحس ذلك كله تنطق به كلماته وتوحي به عباراته وان كان لايزال اذ ذاك كاتبا ناشئا . خذ مثلا قوله في صدر هذا المقال ص ١٤« الآن صدرت (صوت الحجاز) منفصلة تمام الانفصال عما مضى لها من عهد غابر فحقيق بالشباب المثقف أن يقابلها بالترحاب ويمد اليها يد المؤازرة والتشجيع ذلك لأنها في موقفها الحاضر تدعو الى الرزانة في التفكير وتحض على التسامي بالآداب في وقت واحد وما أحب الينا ـ نحن القراء ـ من أن يفكر أدباؤنا ويعملوا في اخلاص للأدب وحرية في الرأي فنتذوق من أدبهم الحسي شهدا مشتارا يفيدنا نحن ويرفعهم الى درجة الخلود » .

ثم يختتم مقاله هذا بقوله في ص ١٧ « والجريدة لا تؤدي رسالتها وتجلو صدأ الأذهان الا اذا حافظت على مبدئها وتحررت من الشوائب واختطت سبيلها في رزانة وتعقل واستقامة ولم تقف موقف الطفل الغرير كل من جاء لعب به واستهواه . والآن وقد دخلت « صوت الحجاز » في طور جديد طور التقدم فعلى محرريها الأفاضل أن يعتنوا بالدقة فيما ينشرون ويحرصوا على الاجادة فيما يختارون فهاتان المزيتان بلاريب مما يكفل للجريدة رفعة مكانتها ويحببها الى قرائها ويقيل من عثارها ويوسع من دائرة شهرتها .

وليعمل كل أديب في نشاط واخلاص تاركا لزملائه الأدباء سبلهم وآراءهم والانسان موفق مجدود ما استمر على منهاج قويم » .

فانت ترى أسلوبه سهلا هادئا ، وأفكاره هادفة تنضح بالصدق ، وكلماته سهلة ميسرة لا تحتاج الى عناء ·

وقد تلوح البساطة على لغته وأسلوبه في مقالاته الأولى وهذا ليس بعيب فكل ناشيء يكون كذلك ، بل ان ما قدمه في مقالاته الأولى يدل على ثقافة واسعة وحصيلة لغوية جيدة وأصالة ونزاهة في الفكر واللفظ والموضوع · وذلك اذا قيس بأترابه ·· واذا أردت أن تعرف كيف يتطور أسلوب حسين سرحان ويرتقي وكيف يهذب مناهجه وأفكاره فتقرأ فيه كاتبا غير ما قرأت في المقالة الأولى فاقرأ كلمته « كيف أتمنى أن أرى ابن آدم » ص ٤٤ وهي عن « البلاد السعودية » سنة ١٣٦٥ هـ ويخيل لي أن الأستاذ حسين سرحان في هذا المقال يحكي صورة من صور طفولته جعلتها الحقيقة والمهارة في التحليل النفسي العميق رائعة من روائع أديبنا ، وما روائعه بالقليل ·

ولعلك تريد أن تسمع أو تقرأ شيئا من روائع حسين سرحان بعد ما اشتد واستوى على سوقه واني لمختار لك هذا النموذج الذي يكشف فيه عن شيء من خلاله ويحمل فيه أيضا على أدعياء الأدب الذين يظنون أنهم دخلوا عالم الأدب والأدباء بطباعة ديوان أو نحوه وقد لا يكون هذا المطبوع مستحقا للقراءة ·· يقول الاستاذ « حسين سرحان » تحت عنوان « النثر والشعر وأشياء أخرى » : « للأدب وقدة تلذع العقل ، فتخل بتوازنه او تكاد ، ولا سيما عند ما يكون الأديب في مراحله الأولى التي لابد له من اجتيازها · وهذه المراحل الأولى لازمة ، فان كل شيء لا ينتهي الى آخره الا مجتازا بأوله ، الا فكيف يكون له آخر ؟ · وقد اجتزت هذه المراحل · وأنفي من الرغام ، وان كنت ومازال أعتقد أني في أواخر هذه المراحل الأولى التي تجمع دائما بين السخف والغثاثة والثقل · وقد لا يسمح اديب لنفسه أن يعترف بذلك ، ويريد أن يقول ـ بالفعل او بالكلام أنه اصبح الآن في رأس الذروة ، ولكن ذلك لا يعنيني ، فانه ليس أحمق ولا أجهل ممن يغالط في الواقع الذي يكاد يفقأ عينيه » ·

وبعض أدبائنا الآن يحسب أنه تصدر القافلة لأنه نشر له ديوانا أو ألف كتابا ، وهذا الحسبان يقوم على شيء كبير من الوهم والهوج وقصر النظر · وما من سبيل الى القياس « الصحيح » اذا كان كل أديب يتخذ لنفسه المقياس الذي يريده ، ويذهب راكبا رأسه على غير طائل ·

والمقياس الصحيح الذي توجبه أبسط بسائط (البداهة) أن يقاس الأثر – من نثر وشعر – لجودته ولذته وجدواه لا بكثرته أو قلته . فان هناك أدباء مصريين وغير مصريين نشروا عشرات الكتب . ولكنا لو تصفحناها لوثبنا من الغلاف الى الغلاف بنظرة واحدة .

وحيث تجد الأدب النزر تجد الاندفاع الى تسلق الشهرة قبل أوانها . فهاك يامطبعة . اخلطى البياض بالسواد وهاتي أوراقا مجموعة بين دفتين .. ثم اذا هي معلقة على واجهات المكتبات كأنها النشرات التي تقذف من الطائرات للانذار والتخويف .

هذه الحالة مرت علي قبل سنوات عشر أو اكثر . فهيأت ما كان عندي من الشعر في أربعة دواوين – أو اكواخ – وسميتها – ليحفظها الله – الأغاريد . وحادي العيس . وهدهد سليمان . والزبد – بفتح الزاي والباء – لا الزبد بضم الزاي وسكون الباء – حتى لا يبادر القراء الى لحس شفاههم ..

جمعت هذه الدواوين الأربعة وكنت أستعجل النشر والطبع واود لو طبعتها على طائرة ؟! ومضى زمان كنت أعتقد فيه أن الناس – ما أشقى الناس – سيصابون بخسارة عظمى ان لم يقرأوا شعري وان كان لم يبلغ بي هذا الغرور المضحك الى أن أصدر دواويني برسومي الجميلة ! .

خفت سورة الحمى وبردت حرارتها . بل هبطت الى ما تحت الصفر زمهريرا ولله الحمد فاقتنعت على فترات ان كل ذلك باطل الأباطيل وقبض الريح كما يقال .

واحرقت شعري وآثاري الاولى . وأرحت الناس ونفسي من شرها وركاكتها . فان الناس لا يزدادون على ما بهم . فلعل الله يلطف بعباده .

واليوم يسألني كثير من الناس : لماذا لا أنشر شيئا من شعري وقصصي ؟ ويعتبون علي . وان لهم لمستعتبا . لو كنت أملك أمري . واجمع شملي . وأجازف بنشر حماقاتي عليهم . واذا كانت الحماقة أعيت من يداويها كما يقول الشاعر : فاني قادر على مداواة حماقتي بحبسها في نفسي وكتمانها عن غيري . وهو علاج بسيط . ولكنه لا يوجد في « صيدلية » كل أديب » .

ويروق للأستاذ حسين أن يصور بعض عاداته بمثل قوله في صدر موضوع تحت عنوان « شهوة الكلام » : « واين مني هذه الشهوة اللذيذة . والناس يعلمون أني كالحيوان الأعجم لا أتكلم الا ذاما ؟ .

وشهوة الكلام هنا – فيما أرجح – محصورة في هذا الكلام العادي او غير العادي الذي تنطلق به ألسنة الناس ، وتهدر كما تهدر الفحول ، وما بها . « قطم » كما يقول المتنبي » ·

وترى حديثه عن خلاله وعاداته مبعثرا هنا وهناك مثل قوله من حديث بعنوان « ذيل الطاووس » تحدث فيه عن الشهرة وتباهي الناس وفرحتهم بها وسعيهم من أجلها فهو موضوع اجتماعي أخلاقي تحدث فيه كاتبه بصدق حتى عن نفسه أنه لم ينكر جنوحه للشهرة بل أنه عاب على مدعي العزوف عن الشهرة قولهم ، وهو حديث شيق لطيف نقتطف منه قوله (للشهرة ثوب مثل ذيل الطاووس براق اللون لماع الأفواف كلما انعكست عليه أشعة الشمس ازداد ألقا وجمالا ، وللطاووس – أو للمشهور مثلا – ألف عذر عندما ينظر الى ذيله ويثني عطفه ، ويرجع الطرف مرة بعد مرة الى هذا الذيل – أو الثوب – دون أن يمل رؤيته أو يشبع منها ·

وكلنا يريد الشهرة بكل وسيلة من الوسائل ، وانه لكاذب كاذب ذلك الذي يدعي أنه يمقتها أو يزهد فيها ، وقد كنت من عشاقها المدلهين قبل أن يخضر عذاري ياله من عذار – فلما اسود هذا العذار أو ابيض – لا ادري أصبحت بعد ليلة واحدة مشهورا على الأقل في وطني وبين عشيرتي والحق أني نلت الشهرة من أبوابها الخلفية أعني من الأبواب الخيالية التافهة التي لا تستطيع الا أن تربط على بطنك حجرا لو انك اكتفيت بها لبلوغ عيشك ، أو اتخذتها ذريعة لازدراد لقمتك ، وأعني بالأبواب الخفية ، أبواب الأدب والشعر والفن ، وكل ما تنفضه هذه الريشة المعتام مما يقال عنه أنه غذاء للأرواح وزاد للعقول وامتاع للقلوب ! ·

ولم أستطع أن أبلغ الشهرة من أبوابها الأمامية المرعبة فاني أخيب ما أكون مشهورا في الثروة أو سعة النفوذ أو حسن الادارة أو جلال الشخصية ، كلا ، لست هناك مادام دون ذلك صراع وهول ومكايدة وانزلاق على الرغام ، وسحب على التراب كما فعل (أخيل) ببطل طروادة (هكتور) بعد أن جندله ·

ولم أصبح مشهورا لكتاب ألفته ، ولا لديوان أصدرته فأثار ضجة في الأوساط الأدبية وأثنت عليه الصحف وتبادر الكتاب والنقاد الى تقريظه · فاني لأعجز وأنكل عن ذلك واني لكما يقول رئيس تحرير هذه الجريدة (أقف على المحطة ، والفتيان المجاج قد ركبوا وفاتوني) فلله دره ، لقد احسن في وصفه وأساء الى موصوفه ·

ولكني نلت ذيل الطاووس بدليل أن كثيرا من الناس يسألونني عن رايي في كتاب صدر أو ديوان طبع أو شاعر أشرق نجمه ، وقد يركبني شيء من الغرور ، وقد أنظر طويلا الى (ذيل الطاووس) في خيلاء ودلال وأقول رايي الذي هو القول الفصل كما أخال واترقب مؤلفا كيسا « مثل الميداني » ليجعل من أقوالي (مجمع أمثال) آخر) ·

ويحمل الأستاذ على الأديب ويصفه بأوصاف لو وصف بها الحمار الذي كان يركبه اذ ذاك لقذف به جانب الطريق فيقول « ان الأديب حيثما كان لمخلوق تافه ، وان طريقته في تفكيره وتناوله للأشياء لحقيقة أن تقوده الى الجنون الوشيك · فأين يقذف بنفسه هذا الذي ما يفتأ يكظ رأسه ويملأ ذهنه بآلاف الألفاظ والعبارات الجوفاء حتى يكاد ينفجر مثل القنبلة الذرية ، ولكنه لا يحطم الا نفسه بدلا من أن يدمر مدينة يابانية مثلا ! ·

هناك من يملأ فناءه بكرائم الأنعام والسيارات ، وهناك من يملأ بيته بنفائس الطنافس ، وهناك من يترع خزانته بأعلاق الذهب والفضة ، فأين يذهب هذا الأديب المحمق المرزوء ؟ ·

الفاظ يسحبها الأديب من بطنه مثل العنكبوت ثم يمد رواقها على نفسه ، فاذا هو محبوس فيها يحور ويدور ، ولا يقدر على الانفكاك منها ·

فما أعظم فجيعتنا في أعمارنا حينما اعتصرناها في اصطياد هذه الألفاظ الأوابد ·

ان الانسان الذي يملك سيفا مذهبا مرصعا بفرائد اللآليء ولا يعرف للسيف الا هذا الاسم فقط ، لهو أسعد وأرشد بلا ريب من الأديب الذي يحفظ للسيف مائة اسم من أمثال المهند والجراز والعضب والصمصام الى آخر هذه التفاهات ! وهو لا يملك قطعة من الفضة ! » ·

ولكن لا تغرنك مقالة الأستاذ فان مستور المعنى فيها ينطق بغير هذا · ويقيني أن الأستاذ هدف الى تصوير آراء بعض الناقمين على الأدب والأدباء ، أولئك الذين حرموا الشفافية والرقة واللطف في الاحساسات والمشاعر كما حرموا القدرة على التسامي عن الجانب المادي من الحياة فحيل بينهم وبين أن يعلقوا بشيء من المتعة العقلية التي تدرها الروحانية على الأديب الأصيل مثل أستاذنا (حسين سرحان) وحين أقول لكم انكم كلما أوغلتم في كتاب « مقالات سرحان » كلما بدا لكم أنه أكثر عمقا فصدقوني ، وان لم تصدقوا فخذوا هذا المطلع لمقالة « الصياد والسمكة » المنقول عن صحيفة « البلاد السعودية » عام ١٣٦٧ هـ يقول الأستاذ « ما من شك في أن الانسان عندما يكثر الاختلاط والامتزاج بشيء معين ، فانه يكتسب مع الاستمرار مشابهة

باطنة أو ظاهرة من ذلك الشيء ، وتبدو عليه سمات واضحة بالشكل أو خفية بالمعنى من كل مايتوفر عليه أو يمتزج به أو يصفيه وقته أو يبذل فيه جهده ، فالحداد مثلا ترى من ثيابه ووجهه صدأ الحديد ، فان كان يتأنق في هندامه بعض الشيء فستجد آثارا حديدية في عقليته أو في روحه أو في سلوكه أو في عباراته على الأقل ، والحمار لطول الفه للحمير وخدمته لها واختلاطه بها لن تعدم فيه شية حمارية [عالية] في بعض ما يبدو منه من حركة أو سكنة أو قول قاصدا أو غير قاصد » ٠ لكن ترى الأستاذ بعد هذا في مقاله يخفق الى حد ما في تطبيق هذه النظرية على شكل الصياد حيث يقول « ولكنك لو رأيت [مسعودا] صائد الحوت لعلمت أن عناصر المخلوقات مهما تباعد بها التناقض فانها تتصل وتتشابه أتم التشابه ان لم يكن في البين الظاهر ففي الخفي المكنون ٠

ان مسعودا ــ سبحان الخالق ــ بعد أن غبرت عليه أربعون سنة في اصطياد الحوت ! أصبح سمكة ناطقة تسير على قدمين آدميتين ، ولها مثل وجه الآدمي أيضا مع بعض الانحراف المحسوس الى عرض الوجه بدلا من طوله ، حتى لكأنك أمسكت رأسه بيد وذقنه بيد ثم ضغطت ضغطة جيدة ، وأمسى أعلى راسه سطرا مستويا ، لو رأيت ــ عن عرض ــ أعلاه وغاب عنك أسفله ، لبادرت ولو لم تكن صياد حوت الى الشبكة واحتويته فيها » ٠

ان شكل الوجه وسائر أجزاء الجسم لا يخفى على الأستاذ أنه يتكون قبل الولادة بوجه عام فكيف تركت الحرفة فيه أثرها ولو أن الأستاذ قال ان حرفة أبيه ساعدت على هذا التشكيل ربما كان أقرب للصواب ، وظني أنه أراد غمز شخص بعينه على أسلوب أدباء السخرية كالمازني وأمثاله غير أن هذا لا يكون عن طريق نظرية وتطبيقها ولست أخفي أثر الحرفة على صاحبها وبخاصة في أخلاقه وما ظهر من صفاته كالخشونة والنعومة والليونة في الخلق والملبس والأديم ، أما أن تؤثر في تكوين الجسد أو بعض أعضاءه كعرض الوجه أو استطالته فلا ٠

ويعمد كاتبنا حينا الى نقد أخلاق الناس وعاداتهم ومحاولة توجيهها الوجهة الصالحة فلا يجرؤ على مصارحتهم بل يجعل من نفسه كبش فداء ، أي أنه ينسب هذه الأخلاق الى نفسه قاصدا في ذلك انتزاعها من نفوس الآخرين اقرأ في ذلك ان شئت حديثه (أنا لست بفاضل) ص ٨٥ ٠

وحين يقصد الى النيل من شخص فانه يناله من طريق لا يستطيع أحد أن يقول عنه أنه مسف ولكنه مؤلم أشد الايلام وأي ايلام أشد من تهمة

التقصير في الواجب العام المرتبط بمصالح المجتمع ، هذا هو الطريق الذي يسلكه « حسين سرحان » اذا أراد أن يطعن في خصم ، واقرأ ان شئت في ذلك مقالته (لماذا تستفزنا) ص ٩٣ · وهو لا يصرح بالأسماء ولكنك تكاد تسمع صوت من يتحدث عنه حين تقرأ حديثه عنه ووصفه له وهذا كثير في كلامه ومنه مقاله « جواب فات أوانه ص ١٠٠ » والطموح الذي اتسم به قلم سرحان ظل يصعد بأسلوبه وفكره حتى سما سموا يحسده عليه كل من يتوق الى أن يكون ذا قلم ناجح يستوى في ذلك عنده اللفظ والأسلوب والفكرة ثم المعنى أي أن سموه كان في الشكل والمضمون على حد سواء ، واذا أردت دليلا على ذلك فاقرأ على سبيل المثال مقالته ص ١٢٦ التي قال انها رد على رسالة من (عبد الغني قستي) وما هو في حقيقته الا حديث عن الشباب تحس فيه تحسر الأديب من انصرافهم عن القراءة والكتابة حتى صاروا أقل من أنصاف مثقفين ومما ستلحظه وأنت تقرأ هذه المقالة ، شكوى الأديب من الكساد الفكري والثقافي ، ذلك الكساد الذي صرفه عن جمع قصائده ومقالاته واكمال ما نقص منها ونشرها ، وهذه مسألة كثيرا ماوردت على لسانه في هذا الكتاب صراحة أو ضمنا ولعله بذلك يبحث عن مجتمع يشبه المجتمع الذي نشأ فيه وهو مجتمع في هذه الناحْية مثالي ولكن هل تساعد أوضاع حياتنا اليوم وظروف معيشتنا على وجود مثل ذلك الفراغ الذي كان عند ذلك الجيل ·

لقد تدفقت المادة وكثر الثراء · ولكن الوقت ضاع في غمار حياتنا الجديدة ومتطلباتها وجر في أذياله بعض العادات الطيبة كالقراءة واللقاءات ومجالس الذكر والفكر فأين يومنا من أمسنا ؟ ·

ويعالج مشكلتي الغلاء والغش فيتحدث عنهما بأسلوب الأديب لكنه يمزج حديثه بالفكاهة والسخرية ولكنها الفكاهة والسخرية المحتشمة ، استمع اليه يقول في ص ١٤١ [وأحسست بجوع فذهبت الى مطعم متواضع وطلبت طبقين أو ثلاثة ، وليس معقولا أن تقدم اليك الأطباق خالية فمن المفروض ـ أو المحتمل ـ أن يكون الطعام المطلوب موجودا في الأطباق ، وشككت وخامرني وهم عجيب ، على أني في النهاية استطعت أن أحدد موضع الأكل من الأطباق وعثرت عليه كما عثر [أرشميدس] على مفقوده المستعصي فأما الأرز فتستطيع أن تعده واحدة واحدة ، وأما اللحم فانك تحصي قطعه الثلاث على بعدْ أميال ، وتحمد تضلعك الغزير من علم [الحساب] وأكلت مثل السنور مغمضا عيني ودسست يدي في جيبي ، وقلت كم الحساب ؟ ·

وكان صاحبي هذه المرة [أندونيسيا] فاصفرت أسنانه ، وارتعشت شفتاه . ووضع كلتا يديه على صدره ، تلك الطريقة التي يحسنها سكان الجنوب من شرقي آسيا ، وقال أربعة ريالات ! ٠

وكان يخرج العين [الحلقية] من أقصى حنجرته على تكلف واستكراه ولم أستطع أن أقول شيئا على الرغم من خواء بطني المحتج ونبذت اليه بالريالات الأربعة وسمعته يقول ـ وأنا خارج ـ : « بعودة ان شاء الله » ولم يسمعني وأنا أقول : كلا لن أعود ٠٠ لا يمكن أن يموت الانسان مرتين في ضحى يوم واحد !] ، وقد تلحظ أيها القارىء الكريم أني أكثرت ايراد النصوص من مقالات حسين سرحان ، والحق أقول لك ، أني لو انسقت وراء رغبتي في أن تصحبني وأنا أقرأ مقالات سرحان لقدمت لك جل ما احتواه هذا الكتاب ، ذلك أن لأسلوب سرحان حلاوة وطلاوة هي السحر الحلال بحق ولا غرابة في ذلك ولا بدع أوليس الأديب الأصيل ؟ ٠

ويكتب في رثاء « زكي مبارك » فتراه ينسل الى أعماق نفس الأديب الراحل يتلمس خلاله وسجاياه في أساليبه التي يتعامل بها مع أعدائه وأصدقائه على حد سواء ويتحدث عنه حديث الأديب عن الأديب ٠٠ حديث يدفعه الوفاء والاعجاب لا الملق والرياء والمجاملة ٠ أما حديثه عن ابتسامات الأيام لابن بليهد فانه حديث باء فيه بالاثم ـ أستغفر الله ، فقد سرت العدوى من أسلوبه الي » ـ أقول لقد قال في ديوان ابن بليهد قولا ردده كل من تحدث عنه بعد ذلك وخلاصته أن شعره العامي أقوى أمكن في الأصالة وأسباب الاجادة من شعره الفصيح ٠ ولن أسأل أستاذنا سرحان أقرأ قصائد ابن بليهد التي لم يحوها ديوانه ولكن هل نظر في جميع قصائد الديوان فقرأ مثل قصيدته :

أرقت لبرق ساهر متألق
أراقبه كالمغرم المتشوق

٠ وهي في الديوان ص «٢٣٢» وعلى أي حال فربما جر لهذا الموضوع حديث آخر ٠٠ قلنا من قبل أن الأستاذ سرحان اذا أراد أن يطعن في شخص ويهجوه في كتابته فانه يعمد الى التلميح لا التصريح ولكنه يدلك على صاحبه بأسلوب كأنك من خلاله تضع يدك على كتفه ، وفي مقالة ص «١٦٤» ترى هذا الرمز في الهجاء بلغ من العمق الى أن سمى صاحبه واجداده بأسماء نباتية فاسمه « كراث بن ليمون الفجلي » وعن هذا الصاحب تحدث بأسلوب

ذلك على أن كراثا هذا رجل ثرثار يقحم نفسه في كل ميدان عرفه أو لم يعرفه ليقال انه عالم وان كان هذا العلم أوضح دليل على جهله ، يقول سرحان عن صاحبه كراث ، ولكن بني فجل بطن من بطون قبيلة (كزبرة) فهو كزبري علاوة على أنه فجلي مردوده الى بطنه ، وكان متعلما أحذق تعليم ومربى أروع تربية ، وله أشياخ عديدون في كل فن وعلم ، ونشيء فوق ذلك تنشئة (الحلية) التي هي في الخصام غير مبين ، بيد أنه كان مبينا في حرفته الخاصة ، وهذه الحرفة موجزها أنه يتحدث في مسائله الخاصة فيبين فيها كل بيان ، فيتكلم عن مزارعه وابله النجيبة وعرسه الكوكاكولا الكريمة ، ثم ينطق بأسماء شركات وهمية ، أو حقيقية ليريك أي مدى يبلغ نفوذه فيها · وكان مع هذا كله يتكلم عن الطب في الأدب ، ويتحدث عن الأدب في الطب ، ويفيض عن الصناعة في الزراعة ، وهكذا كان صاحب نقائض وأخا مفارقات ، ورب متباينات » ، وبمثل هذا الأسلوب يمكننا أن نحكم على سرحان بأنه كاتب رمزي ساخر هازل ، ولو تلمسنا أسباب هذا الاتجاه عند أديبنا لأمكن أن نرجعه الى أسباب ثلاثة ··

أولها : أن هذا اللون من الأساليب يجتذب القاريء اليه وفي هذا كسب كبير لمن يهدف الى اصلاح ما اعوج أو فسد من أوضاع المجتمع ، ولا شك عندنا أن هذا من أهداف أديبنا كما تشهد به مقالاته الاجتماعية الكثيرة التي حوى هذا الكتاب جزءا كبيرا منها ·

وثانيها : أنه يجد في هذا الأسلوب متنفسا يقذف من خلاله ما تضطرم به نفسه ازاء تصرفات بعض الأفراد ·

وثالثها : أنه كثيرا ما أودع في تلك المقالات الساخرة آلام نفس سمت بها عزتها وأنفتها عن الثرثرة في المجالس ، وعن محاورة الأخرين فيما يصدر منهم في حقها من أخطاء ·

واذا قلنا أن المقالات الأدبية والاجتماعية هي الصبغة العامة لهذا الكتاب ، من مقالات حسين سرحان ، فانا نود أن نشير الى أن للقصة فيها نصيبا اذ أن هناك ثلاث قصص في الصفحات ٤٠ و ١١٧ و ١٩٠ ، واكثر من مقالة صاغها الكاتب في أسلوب قصصي أو شبه قصصي ·

وقصصه كلها اجتماعية هادفة منها مايعالج به كل الموظفين واهمالهم كالأولى والثانية ، ومنها ما يقوم فيه مقام الواعظ ولكن بأسلوب لبق جذاب كالثالثة ·

وعندي أن ما قدمه أديبنا في ميدان الأقصوصة جيدا جدا لو احتذاه

كتاب القصة عندنا لأتوا في قصصهم بما يرضي ولأراحونا من هذا الغثاء الذي يغلب على انتاج أدبائنا في هذا الفن ·

واذا كنا نعد الأستاذ حسين من النقاد الاجتماعيين فانا نسجل هنا أنه لم يجرؤ على أن يجبه مجتمعه صراحة بما فيه من عيوب ، بل كان يعمد الى الأسلوب الهازل والقصص الخيالية يوميء فيها الى مايريد ويلمح ولا يصرح ، واذا أردت أن تتبين ذلك فاقرأ مقالته « حلم غريب » ص ١٨٢ ·

انه يريد أن يقول أن الاكراه في الزواج ظاهرة يجب أن تختفي ، لكن المجتمع لن يتقبل منه ذلك ، أو على الأقل عامة الناس ، وجل خاصتهم ، من هنا صاغ فكرته في رؤيا خيالية جعل صاحبه فيها يرى أنه صار « أذن حمار » ، وحين ذهب الى مفسر الأحلام قال له « انك ستتزوج على رغم انفك » · أما حسين سرحان الناقد الأدبي فانك تقرأه في بعض المقالات القليلة منها : ـ

١ ـ مقالات من الشعر البدوي ص ١٢١ ·
٢ ـ ابتسامات الأيام ص ١٠٨ ·
٣ ـ الأمس الضائع ص ١٧٦ ·
٤ ـ اللفتات الذهنية في شعر ابن لعبون ص ٢١١ ·

ونحن وان كنا ننوي أن نخص هذا الجانب عنده بحديث خاص الا أنا نود أن نشير هنا الى أن نقده الأدبي يدل أول ما يدل على ثلاثة أمور :

أولها : أن الرجل ينزع من منزع أصيل في لغته وأهدافه ويتجلى لك هذا في فصاحة لفظه ومتانة أسلوبه وجزالة تركيبه وسمو معانيه ·

وثانيها : ثباته في وجه تيار المخالفات الأدبية التي أملاها حب الشهرة ولو عن طريق مخالفة الأصول الثابتة حتى لكأنما الأدب عند أرباب تلك الرغبات معرض أزياء أو متجر « مكياج » ·

وثالثها : أنه رغم قدرة الرجل الكلامية تراه مهذبا ، لبقا ، يضع الكلمات في موضعها بلباقة وأدب ، ولما كانت الحقيقة في نظر الناقد قد تؤذي حينا ، « أو على الأقل لا تريح » فان سرحان يمزجها بشيء من المزاح أحيانا ، وهذا المنهج يظهر جليا في نقده ديوان حسن قرشي « الأمس الضائع » ولا بأس من أن نتعجل فنورد من ذلك المقال ما يشهد على صحة ما قلناه ، يقول حسين سرحان (وما من « أمس ضائع » في « ظلال الوحي » لو توخينا الانسجام حتى فضول الكلام ، ولكن هداب الألفاظ غير هداب (الدمقس المفتل) من شحم مطية (امريء القيس) وحظ العذاري أدسم وأنفع ولا ريب من حظنا · مع الفارق في الحالتين ·

ورأيي على العموم في شعر الصديق القرشي ، أنه شعر عصري مناسب لمكانه في مراتب الشعر الحديث ومكانه من الشعر ليس بالمكان القليل ولا الضئيل في مثل هذا العصر الذي يجري كل شيء منه على عجل ·

ولا يعيب مثلا أن تجمع فيه الصفات على غير قياسها فيقال الحمراء بدلا من الحمر ، وما يشبه ذلك ، أو يمد فيه ضمير المتكلم (أنا) أكثر مما ينبغي ، أو أن تبدو في بعض المعاني فهاهة وعجز في مثل هذين البيتين :

كلما شمت في حياتي نبعا
سحر النبع لي فكان سرابي !
أو تنورت في مسيري طريقا
ربضت ناره على أعتابي ! »

ولم أرتح لمناقشة آراء الأستاذ حسين التي اختلفت معه في وجهة نظره فيها وبخاصة ما كان منها في أول عهده بالكتابة ليقيني أن كل شاد تكثر هفواته حتى يشتد عوده ، وان كنت أستثني الأستاذ حسينا من هذا العموم اذ أن هفواته عندي أقل كثيرا من هفوات مزامنيه من أترابه حتى اذا ارتحت الى الرجل قد تضجت ثقافته واتسعت واستوى فكره على سوقه أخذت في مناقشة الحساب فيما أختلف معه فيه ·

ويعجب سرحان بالشعر البدوي المتأخر فيدفعه اعجابه به على حمل مفرداته وجل عباراته على الفصيح وذلك في قوله في ص «١٢٥» فأما المفردات وأغلب العبارات فانها عربية صحيحة ويدخل بعضها تحريف طفيف » وهذا قول يحمل شيئا من المبالغة ، وان كانت مبالغة ربما ساغ انتحال بعض المبررات لها ولكنها مغالاة على أي حال · فالشعر العامي لا جدال في أنه يمتزج بكثير من الألفاظ العامية التي لا أصل لها في اللغة أو التي اعتراها من التحريف ما قلب أمرها رأسا على عقب ، وما أظن هذا يخفى على أستاذنا الأديب الكبير ولكن « عين الرضا عن كل عيب كليلة » ولكن أيسوغ هذا من عين رضا الأديب الرائد ؟· وفي هذا البحث الذي كتبه عن الشعر العامي أثنى على قصيدة عامية لابن بليهد وأورد مطلعها ، غير أن روايته لها تختلف عما رواه لي مانع أبو العلا الذي روى له القصيدة كاملة مع خبرها ، فأما رواية سرحان ص ١٢٥ فهي :

أشوف الأيام تقدح بأهلها قدح المشاهيب
وقد تغير ولا أدري ويش ينطل في عقابه

وأما رواية أبي العلاء فهي :

أشوف الأيام تقدح مثل قدحات المشاهيب

وقت تغير ولا أدري ويش ينطل من مقابه

ولم أطلع على رواية أستاذنا حسين سرحان الا بعد طبع كتابي «الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد وآثاره الأدبية» . والا لأشرت اليها أو حققتها على ضوء مقابلة روايتيهما .

وحين تقرأ الكثير من مقالات حسين سرحان وبخاصة تلك التي عالج فيها بعض أمراض المجتمع تجد أن حديثه يمتزج بسخرية لاذعة ولكنها مترفعة لا تسف الى حد اضحاك الناس وانما هي من ذلك النوع من السخرية التي تنبه العقل بما يشبه الصدمة الكهربائية .. ثم تجده في حديثه عن المازني الأديب الساخر يتحدث عن السخرية والساخرين حديث من يمقت هذا اللون فهو يقول في ص ١١٢ (كل انسان مهما كان .. بمركب نقصه المجبول عليه ، ولكنني أعتقد أن [الساخر] من الضعف البشري وأوضاع الحياة وحماقات الناس ، يحمل في نفسه أكثر من مركب نقص واحد ، وان كان هذا الساخر فيلسوفا عميقا أو شاعرا .

والمازني غفر الله له ـ كان ممنوا بالشيء الكثير من مركبات النقص الظاهرة ـ فضلا من الباطنة ـ فالقزامة في القامة ، وانحدار العين عن دمامة ، ورجله المهيضة ، التي ما يفتأ يشير اليها في مقالات عديدة وأطوار الاملاق التي اضطرته الى بيع مكتبته ، وأكلها وشربها ـ كما يقول ـ .. فهل يعد هذا تناقضا أم أنه يسخر ولا يدري أنه يسخر ؟ أم ماذا ؟ .

لعل أستاذنا حسين سرحان مد الله في عمره يتحدث لنا عن هذه الظاهرة فيما كتب . وكان يحسن بمراجع الكتاب عند طبعه أن يضع تطبيقا لما وقع من أخطاء بخاصة تلك الأخطاء التي قد تقلب المعنى أو تسيء الى فهم مقاصد الكاتب كمثل كلمة «اغراب» الواردة ص ١٢٤ في العبارة الآتية «وشر ما في هذا الشعر انعدام الاغراب فيه» ، وصوابها «انعدام الاعراب فيه» ، لأن الرجل يتحدث عن الشعر العامي ويشكو من خلوه من الاعراب .

ومما تلحظه في رؤوس الموضوعات عند سرحان أنه كان فيها موفقا يخيل لك أنه تألق في اختيارها حتى جاءت معبرة ، توحي بمضمون ما وضعت له ، ولكنه ايحاء لا يحسنه الا من منحه الله مثل ما منح سرحان من دقة ملاحظة ورهافة احساس وخبرة قوية متينة بالعربية وأساليبها .. اقرأ مثلا هذه العناوين لبعض كلماته «جواب فات أوانه» «وترى الفتيان كالنخل» و «أنا لست بفاضل» و «لماذا تستفزنا» وهكذا ..

واذا وجدت من رؤوس موضوعاته ما يفتقد تلك الدقة فاعلم أنه مما

كتب في أول عهده بالكتابة ومن ذلك عنوان أول مقال ورد في الكتاب وهو أسبق ما أثبت له وفيه وهو (المعمرون) ·

فأنت حين تقرأ هذا العنوان يرد الى ذهنك أن الرجل اما أن يتحدث اليك عن المعمرين بوجه عام · ويتلمس الأسباب التي هيأها لهم الله ليكونوا كذلك ·

أو أن يروى لك سير جملة من أولئك المعمرين أو أن يجمع بين هذا وذاك · حتى اذا ما قرأت مقاله هذا وجدته يتحدث عن رجلين فقط أحدهما كان جارا له والثاني يبدو أنه كان خادما ، ولو أنه قال « معمران » أو « من المعمرين » لكان أدق ·

وتظهر لك ثقافته فيما كتب على نحو لا يوحي باجترار تلك الثقافة لسد الفراغ وانما تأتي في صورة شاهد أو برهان أو حجة يسوقها في ميدان حديثه واذا شئت أقرب مثال لذلك فاختر أي موضوع له وليكن « ترى الفتيان كالنخل » ص ١٠٣ ·

ولقد أسفت كثيرا على اخراج الكتاب المعتمد فيه على التسلسل التاريخي ذلك أنه ربما كان سببا في صرف بعض الكاتبين الذين لم يعرفوا الأستاذ حسينا عن مثالية أسلوبه في هذه المقالات التي يرتقي فيها أسلوبه شيئا فشيئا حتى يبلغ الذروة ـ وتمنيت لو أن الكتاب صنف حسب الموضوع وتوخى مصنفه أن يجعل من صدر الكتاب ما يمثل أستاذنا الكبير « حسين سرحان » تمام التمثيل · ولعل جامع هذا الشعر يقول أني لا أقدمه الا لكل رجل لا يحكم الا بعد الاستقراء أو أقول ان هذا قول حسن ولكن أترى قومنا كلهم من هذا الطراز ؟ انني لا أشك في حصافة آراء أدبائنا وأنهم لايصدرون الحكم الا بعد اقتناع ينتج عن فحص كامل للأثر ولكن لا أريد أن يصدم قارىء مقالات حسين سرحان بأضعف ماكتب لأنه كان اذ ذاك في بداية المشوار الثقافي والفكري وهو في السابعة عشرة من العمر ·

وأود أن أنبه هنا الى أنه قد فات جامع هذه المقالات الأخ يحيى اثبات مقالات أخرى فيها ماورد ذكره فيما أثبت الجامع في هذا الكتاب كمثل [العقلية العامية] التي أشار اليها حسين سرحان نفسه في صدر مقالته [هل يكتب شعري] ص ٧٨ من الكتاب بقوله « على أثر نشر مقالي بالبلاد السعودية بعنوان [العقلية العامة] » ·

ومع أن مزامني الأستاذ حسين كان فحولهم يجنحون في كثير من أعمالهم الأدبية الى تحري الألفاظ الغريبة حينا الا أنك لا ترى ذلك عند أديبنا سرحان

الا نادرا كمثل « يتوفل الذرى العالية » ، « أي يصعد » في ص ٢٢ ، وكمثل « مشاهم » التي فسرها هو بأنها جمع مشية ص «١٠٦» على أن هذا النزر اليسير النادر يأتي في أسلوب سرحان كالمشهيات في الطعام ، ولست أعني بذلك أن ايراد مثل هذه الألفاظ عيب يؤخذ على الكاتب وانما أعني أنها تكون مأخذا على الأديب اذا جاءت نابية في موضعها ، ولا يكون ذلك الا نتيجة تكلفه وما كان سرحان في يوم من المتكلفين ·

ثم أني أرتاح كثيرا لبعض الفاظ اللغة العربية التي باتت رهينة المعجم حين صرف عنها الكاتبون والشعراء ، غير أن هذا البعث لابد من أن يكون مصحوبا بحذر ولباقة حين استعمال الكلمات حتى لا يولد نبوها استهجانها والعزوف عنها ·

والآن وقد فرغت من قراءة هذا السفر النفيس وعرضه ، أجدني ارفعه الى مكْانه في مكتبتي ونفسي تنازعني لاعادة قراءته لما فيه من أصالة وصدق فني ولأنك وأنت تقراه لا يعتريك شيء من ذلك الملال الذي يولده حينا طول صحبتك للكتاب ، وما أسفت على شيء بعد قراءتي هذا الكتاب سوى أمرين ، أولهما ـ أن أستاذنا سرحان أحرق جملة من أعماله التي لا أشك في أنها في مستوى مقالات هذا الكتاب ·

وثانيهما : أنه كان يمكن الأستاذ سرحان أن يفيد أمته وبخاصة من يهمهم أمر الأدب بما هو أقدر عليه وأعرف به منا ، ولكنه فعل الأولى ولم يفعل الثانية سامحه الله في الحالتين ·

ومهما يكن من أمر فان هذا الكتاب قد سد فراغا كبيرا كان يشكو منه الدارسون لأدب أمتنا في عصرها الحديث فهل يتاح لنا من يجمع أعمال فحول أدبائنا الذين نأى بهم تواضعهم وتورعهم عن ميادين النشر والطباعة من أمثال حسين سرحان ، وعبد الوهاب آشى ، ومحمد سعيد عبد المقصود وأترابهم ·

ولقد اهتمت صحفنا ، وان اختلفت في ذلك ، اهتماما حسنا بأخبار هذا الكتاب وتحدث عنه بعض المحررين ·

ولست الآن بصدد الحديث عن تلك التعليقات ، لكني لا أود أن يفوت تعليق نشر في صفحة « أدب وأدباء » بجريدة « الرياض » منذ فترة ·· فلقد ورد فيه « وبطبيعة الحال لا يمكن أن تقاس معظم المقالات التي جاءت في هذا الكتاب بالمقالات الحديثة لأنها تعتبر ارهاصات جيدة لنشوء فن المقالة

في الحجاز ومن ثم في المملكة العربية السعودية ».

ومن يقرأ هذا القول ثم ينظر الى ما في صحفنا اليوم من مقالات ولم يكن قد كتب له أن يقرأ « مقالات حسين سرحان » فانه سيزدري هذا الكتاب لا محالة مادام أن أسلوب المقالات فيه أقل مستوى مما في صحفنا اليوم. ولكوني قد تحدثت في هذا البحث عن مقالات حسين سرحان كثيرا فاني سأترك النص الثاني لمحرري صفحة أدب وأدباء بصحيفة الرياض ليوضح للقارىء مقصد صاحبه في العبارة الأولى بقول المحرر : « ومن ناحية أخرى تجد أن الكاتب يكشف لنا التطور البطىء الذي المحرر : « ومن ناحية أخرى تجد أن الكاتب يكشف لنا التطور البطيء الذي طرأ على الصحافة السعودية من ناحية المقالة القصيرة فبعد أن كانت تلتمس وجودها من خلال الأدب أصبحت ذات وجود مستقل يمكن أن تصل الى القاريء دون عكاز اللغة ».

اذن فميزة صحفنا اليوم أنها ألقت عكاز اللغة وتخلصت من العبارات والألفاظ التراثية ، كما يلح على ذلك محرر الرياض فيما لم أورده هنا.

ولكن لا بأس فمن الظواهر المألوفة في أيامنا هذه اضطراب المفاهيم واختلالها واني لأخشى على لغة صحفنا من مضاعفات هذا الجموح !.